سيميائية الشخصية الحكائية في رواية " الذئب الأسود " للكاتب : حنا مينة

الأستاذة: آسيا جريوي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر بسكرة

تقوم الرواية على مصوغات خطابية متمثلة في الشخصية التي تنمو فـي مسـار زمني وفي إطار مكاني لتشكيل الحدث الدرامي. وبذلك كانت الشخصية والزمان والمكان والحدث أو الفعل أساس المقولة الحكائية، ولعل النظريات الحديثة كالسيميائية تقف بتحليل هذه المصوغات الخطابية. إذ تحولت قواعد الرواية إلى قواعد سردية. والبنى السـردية إلى بنى سيميائية سردية.

وعلى هذا الأساس، نقف في هذه الدراسة على إحدى مكونات المحكي والتي تعـد نواياه الدراسات القديمة والحديثة. ومحط أنظار واهتمام الكثير مـن البـاحثين ألا وهـي الشخصية الحكائية. فما هو مفهوم الشخصية ؟

وكيف يمكن دراسة الشخصية من منظور السيميائي عند فيليب هامون ؟

1– مفهوم الشخصية:

تعد الشخصية مكون من مكونات المحكي، وهذا " لكونها تمثل العنصـر الفعـال الذي ينجز الأفعال التي تمتد وتترابط في مسار الحكاية. " [(1)]، فالشخصية تقوم بفعل معين على خط زمني وفي إطار مكاني معين. " هدفها الجوهري ربط أحداث القصـة لإتمـام المعنى. "[(2)]. فنمو فعل أو حدث الشخصية مرتبط بثنائية الزمان والمكان وبتلاحم الأحداث يكون بناء الهيكل العام للنص.

وقد برز مفهوم الشخصية الحكائية مع وجود اهتمام الباحثين بكيفية تحديدها في العمل الأدبي. " إذ تطور المعرفة الإنسانية وتنامي الاتجاهات الفكرية (الفلسفة الماركسية، الفلسفة الوجودية، التحليل النفسي.) . وازدياد صلتها بالأدب عموما. وبالجنس الروائي خاصة. دورا بارزا في الاهتمام بالشخصية الحكائية وتوسيع معانيها وأبعادها داخل النص الروائي وخارجه"[3]. ولقد اهتم الباحثون بدراسة الشخصية كونها القناة التي يعبر من خلالها الروائي عن الواقع المعيش. ولعل ظهور الشخصية كان مع " التحول الاجتماعي إبان الثورة البورجوازية في القرن التاسع عشر الذي منحها وجودها المستقل عن الحدث الذي صار بدوره تابعا لها. ووظيفته إمداد القارئ بمزيد من المعرفة عنها. ويعود ذلك لصعود قيمة الفرد في المجتمع " [4].

ولقد كانت " وظيفة الشخصية الروائية لدى نقاد القرن التاسع عشر تتمثل في اختزال مميزات الطبقة الاجتماعية وتصاعد قيمة الفرد في هذه الحقبة التاريخية. ودوره الفاعل في حركة المجتمع وهذا ما يطلق عليه الآن " روب غرييه " (بالعبادة المفرطة للإنساني) جعل التركيز على قيمة الشخصية في الأعمال الروائية في هذه المرحلة يأخذ منحى غير الذي كان لها منذ فجر التاريخ الأدبي وانتقل دورها من الاهتمام بحياة مجتمع قد انتهى (الملحمة) إلى الاهتمام بقضايا ومميزات مجتمع في طريق التشكل (الرواية) " [5]. بيد أن الرؤية إلى الشخصية تغيرت " فأنشأ الروائيون يجنحون للحد من غلوائها والإضعاف من سلطانها في الأعمال الروائية. فلم تعد إلا مجرد كائن ورقي بسيط. وذلك انطلاقا من نهاية الحرب العالمية الأولى. وكلما تقدم الزمن ازدادت قسوة الروائيين على شخصياتهم ونتيجة لبعض ذلك لم يعد ممكنا دراسة الشخصية في نفسها (على أنها شخص أو فرد). ولكن بدأت الأفكار تتجه إلى دراستها أو تحليلها في إطار دلالي. حيث تغتذي الشخصية مجرد عنصر شكلي وتقني للغة الروائية مثلها في ذلك مثل الوصف والسرد، والحوار. " [6].

ومع تطور العملية السردية وتعقد وظائفها صار المطلوب من الروائي أن يراعي الطبيعة النفسية والمزاجية لشخصيته.

كما يؤكد ذلك توماشوفسكي (Tomachovski) في نظرية الأدب. وهذه الصفات الجديدة للشخصية لم تكن تتوفر لها. ولم يكن يعني بها في النصوص الكلاسيكية. ويذهب رولان بارت إلى أن هذا التطور جعل الشخصية تكتسب تماسكا سايكولوجيا لم يكن متاحا لها سابقا (7). فنلاحظ أن مفهوم الشخصية يسير نحو التعقيد، حيث " يتفــق المشــتغلون بالأدب على أن مفهوم الشخصية أعقد إشكاليات النص السردي. يعترف ميشـــال زيرافـــا (Michel Zéraffa) بأنه من الصعب تحديد تعبير الشخصية الأدبي. في حين يلفت فيليب هامون (Philippe Hamon) الانتباه إلى ان الشخصية مظهر من مظـــاهر " الثبوتيـــة" التي تعوق نظرية الأدب قديمة كانت أو حديثة.

ولعل من أبرز عوامل غموض مقولة الشخصـــية مـــا يســـميه شـــارل بـــودلير (Charles Baudelaire)) بأخوة الفنون (la fratrnité des arts) .

فالشخصية تشترك في استخدامها وتوظيفها فنون شتى (السينما، المسرح، القصة، الشعر وحتى الرسم والنحت ...)" [8] فهي نقطة تقاطع للفنون المختلفة، هذا وكما يتناول " زيرافا الشخصية في معناها العام من خلال تحديد مفهـــوم البطولـــة وذلـــك لوعيـــه أن للشخصيات أدوار مختلفة ومتنوعة تنوع الحياة وأنها لا تحد اعتمادا على البطولة وإنمـــا على الجرأة ، أي قدرتها على مواجهة القوة الاجتماعية بالقوة الذاتية قوتها. "[9].

فإذا كان توماشوفسكي يراعي الجانب النفسي للشخصية فإن زيرافا يراعي الجانب الاجتماعي لتحديد الشخصية هذا باعتبارها تعيش الصراع والمواجهة مع القوة الاجتماعية ، فهي ليست فرد ولكن الشخص/ الفرد المفعم بأفكاره وعواطفه وأخلاقه وهو مـــا يميـــز القوة الاجتماعية، وأما فيليب هامون فيعدها " مجرد كائن لغوي محض. إن الشخصية بناء يقوم النص بتشييده أكثر مما هي معيار مفروض من خارج النص" [10]. وكما يحدد فيليب هامون الشخصية باعتبارها " مقولة سيكولوجية تحيل على كائن حي يمكـــن التأكـــد مـــن وجوده في الواقع (...) فالشخصية علامة ويجري عليها ما يجـــري علـــى العلامـــة. إن

وظيفتها وظيفة اختلافية، إنها علامة فارغة ، أي بياض دلالي لا قيمة لها إلا من خلال انتظامها داخل نسق محدد. إنها كائنات من ورق على حد تعبير بارت " [11]. فهي بمثابة مورفيم من خلاله يتم تحديد وحدات التوصيف [12]. فتمتلئ بالدلالة مع نهاية القراءة.

وعلى هذا الأساس وقف فيليب هامون من الشخصية موقف أكثر دقة وذلك بالتركيز على دورها الفعال في العمل الروائي، فهي علامة فارغة تمتلئ بالدلالة مع نهاية قراءتنا للعمل الروائي وتتخذ الشخصية من خلال علاقتها بالشخصيات الأخرى داخل النسق تماما كالعلامة. وبذلك سنحاول دراسة الشخصية من خلال تحديد فيليب هامون.

–الشخصية عند فيليب هامون: لقد قسم فيليب هامون الشخصيات إلى ثلاثة أنواع:

"فالنوع الأول يحيل على عالم سبقت المعرفة به ، عالم معطى من خلال الثقافة أو التاريخ (الشخصي / أو الجماعي).

وما يطلب من القارئ هو التعرف على هذا التاريخ0 وبالتالي التعرف على هذه الشخصيات (...) أما النوع الثاني فيحدد الآثار المنفلتة من المؤلف. المحافل التي تدل على وجود ذات المؤلف. أما النوع الثالث من الشخصيات فيكمن دورها في ربط أجزاء العمل السردي بعضها ببعض. إن الإمساك بهذه الشخصيات يحتاج إلى الإلمام بمرجعية السنن الخاص للعمل الأدبي" [13].

فتحديد فيليب هامون للشخصية ليس أدبي محض، " وإنما هو مرتبط أساسا بالوظيفة النحوية التي تقوم بها الشخصية داخل النص. أما وظيفتها الأدبية فتأتي حين يحتكم الناقد إلى المقاييس الثقافية والجمالية فيلتقي عنده مفهوم الشخصية بمفهوم العلاقة اللغوية (المورفيم) يأتي فارغا ويمتلئ بالدلالات بعد نهاية قراءتنا للنص " [14].

وقد تمحورت دراسة فيليب هامون على تقسيم الشخصيات إلى ثلاث فئات يرى هامون أنها تغطي مجموع الإنتاج الروائي (فئة الشخصيات المرجعية – فئة الشخصيات الواصلة، فئة الشخصيات المتكررة) [15]. ومن خلال هذه الفئات نستخلص الشخصيات الروائية في رواية الذئب الأسود.

-ضبط الشخصيات الروائية:

تدور الرواية على مطاردة الصيادين الذئب الأسود ومحاولة اقتناصه إلا أن الذئب الأسود يبقى بين الحقيقة والخيال.

فذيله في الغابات الاثنتين والعشرين ورأسه في العاصمة، ويتزايد عدده ويتكاثر في هذه الغابات وينشر الفساد الأسود ويغتصب الخبز ويسلب الحرية ويدمر القــرى محتميــا بالقلاع. لذا نجد الصيادين والصيادات يطاردونه في هذه الغابات. ولقد برزت الشخصيات في الرواية بصراع فكري إذ عبرت عن جدلية العقل والقلب وتغلب العاطفة على الحكمة في مواقف وانتصار العقل في مواقف أخرى فنلاحظ تعدد الشخصيات من بشر وغير بشر حيث استنطق السارد الحيوانات ، فالهداهد تتكلم والحمامة تتكلم وورقة الشجر تتكلم.

وعلى هذا الأساس يمكننا تقسيم الشخصيات بتتبع خطوات فيليب هامون كالتالي:

1-**فئة الشخصيات المرجعية:** " وهي شخصيات تاريخية وشخصيات أســطورية، شخصيات مجازية (الحب، الكراهية) شخصيات اجتماعية، تحيل هذه الشخصيات كلهــا على معنى ممتلئ وثابت حددته ثقافة ما " [16]. فالمرجعية هــي العــودة إلــى الجانــب التاريخي والاجتماعي فهي " الوظيفة التي يحيل بها الدليل اللساني على موضوع العــالم غير اللساني سواء كان واقعيا أم خياليا وبذلك تحيل الشخصية المرجعية (personnage référentiel) على الواقع غير النصي (extra-textuel) الذي يفرزه السياق الاجتماعي أو التاريخي[17].

1-1-شخصيات ذات مرجعية تاريخية: وهي شخصيات تعود إلــى أصــل مــن التاريخ وردت في الرواية، مبرزة دورا فعالا ووظيفة دلالية، ومنها شخصــيات سياســية تعود إلى التاريخ لشخصية (ستالين) وذلك كما في الملفوظ " وقد قيل لســتالين: (البابــا ضدنا) فأجابهم (كم دبابة عنده ؟)، كان ستالين يفهم لغة القــوة ودورهــا فــي مقاومــة الظالمين والمعتدين جميعا ! " [18]. لقد حملت الشخصية الفكر الشيوعي والقوة الاشتراكية آنذاك وقد استعان السارد بهذه الشخصية لإبراز البطل الأرقش الذي تحلى بالقوة والصبر والكفاح لأجل اصطياد الذئب الأسود، كما يعد مؤشر لاستعمال القوة لاسترداد الحرية.

1-2-شخصيات ذات مرجعية أسطورية: لقد ورد في الرواية ذكر أسطورة بقيت الهداهد ترددها على مسمع دغمش في الغابة كما ورد ذكرها في حوار مع الحكيم ودغمش وبقيت عالقة في ذهن دغمش وهي أسطورة (شمشون ودليلة) التي تبقى بين الحقيقة ومزج الخيال " وأنت أكثر بلاهة إذا صدقت أسطورة شمشون ودليلة (...). هذه الأسطورة فبركها الرجل لإدانة المرأة .."[19].

1-3-شخصيات ذات مرجعية فكرية: وهي شخصيات محيلة إلى أفكار إيديولوجية أو فلسفية أو اجتماعية [20]. ومن الشخصيات الروائية " دون كيشوت وهو بطل للرواية وهو بطل لرواية اسبانية للكاتب سرفانتس " دون كيشوت حارب الهواء ونحن نحارب الشبح. نعم ! نحن نحارب شبحا لا ذئبا.." [21]، إن حضور شخصية دون كيشوت والاستعانة بها لفشل الصيادين في العثور على الذئب الأسود وبات إيمانهم بأن الذئب وهم. فهم يركضون وراء السراب كما كان دون كيشوت يحارب الهواء لكن المطاردة استغرقت زمنا جيلا بعد جيل " نطارد الذئب الأسود الذي اغتصب كسرة الخبز ونسمة الحرية. " [22].

2-فئة الشخصيات الإشارية (الواصلة): إنها دليل حضور المؤلف أو القارئ، أو من ينوب عنها في النص شخصيات ناطقة باسمه جوقة"[23]. ونجد في الرواية شخصية الهداهد التي عبرت عن فكر الكاتب وإيديولوجيته تلاحق الصيادين في الغابة تعبر عن مواقفهم بالحكمة والشعر وعما يجول بخاطرهم من أفكار ، فهي الواصلة بين الشخصية الروائية والقارئ كما تعبر عن حضور المؤلف.

3-فئة الشخصيات الاستذكارية (المتكررة): " وهنا تكون الإحالة ضرورية للنظام الخاص بالعمل الأدبي، فالشخصيات تنسج داخل الملفوظ شبكة من الاستدعاءات والتذكيرات لمقاطع من الملفوظ منفصلة وذات طول متفاوت وهذه الشخصيات ذات وظيفية تنظيمية لاحمة أساسا." [24]، ونجد من الشخصيات في الرواية شخصية دغمش

الذي يستذكر رئيفه ويسترجع صورتها حين كانت عند النبع. كما يتذكر ما قالته له الهداهد في كل مرة .

وعلى هذا الأساس كان تقسيم فيليب هامون للشخصيات إلى ثلاث فئات حاولنا استخلاص الشخصيات المحورية في الرواية بتتبع هذا التقسيم وكما تطرق فليب هامون إلى ثلاثة قضايا مهمة تشكل مركز بحثه. وهذه القضايا هي:

أ–مدلول الشخصية: (Le signifiée du personnage)

ب–مستويات وصف الشخصية: (Les niveaux de description du personnage).

ج– دال الشخصية: (Le signifiant du personnage)

ويمكن أن نستخلص من الرواية هذه القضايا انطلاقا من تحديد الشخصية كالآتي:

أ– مدلول الشخصية: (Le signifiée du personnage) :

يعد فيليب هامون أن الشخصية " وحدة دلالية باعتبارها مدلولا لا متواصلا ويفترض أن هذا المدلول قابل للتحليل والوصف. وأن الشخصية الروائية تولد من المعنى والجمل التي تتلفظ بها أو من خلال الجمل التي يتلفظها غيرها من شخصيات النص الروائي. "[25]. كما في الرواية حيث نلحظ أن شخصية الصياد بشير الحكيم وهو كغيره من الصيادين يسعى لاقتناص الذئب الأسود، عرف بالحكمة بين زملائه، فالشخصية وحدة دلالية مدلولاتها تستشف من معاني الجمل والملفوظات التي تتلفظ بها الشخصيات الأخرى. وهذا باعتبار وجود شبكة علائقية بين الشخصيات. فالحكيم بشير تميز بهذه الصفة على مسار الحكي فنجد دغمس يقول: " أنت حكيم يا صاحبي، وتتجلى الحكمة على لسانك، كما تتجلى السحب الأرجوانية على أطراف الأفق عند الغروب.. "[26].

وفي حوار الحكيم مع رئيفة تشيد بهذه الميزة فتقول: " أيها الحكيم الجالس على عرش الحكمة ؟ ابتسم الصياد بشير وقال: إنما أنا جالس على عرش الجهل يا رئيفة. "[27]. فالشخصيات في الرواية تخص الصياد الحكيم بهذه الميزة . وكما نلحظ أن الشخصية تدرك ذلك تماما. فنجده يقول لرئيفة بعد أن أطال الحديث معها : " أعتذر كثيرا

لأني أطلت في الكلام فالحكماء الحقيقيون يصفون كثيرا ويتكلمون قليلا وبوضعي في خانة الحكماء ولو مجازا، كان على ألا أثرثر على هذا النحو..." [28]، إذن فمدلول الشخصية استخلص من خلال علاقة الحكيم بالشخصيات الروائية.

ب- مستويات وصف الشخصية: (Les niveaux de description du personnage):

وانطلاقا من تحديد الشخصية في الرواية واعتبارها مدلولا فيمكن اعتبارها علامة " وإذا اعتبرنا الشخصية علامة مورفيما لا متواصلا مثلا فإننا سنصنفها بوصفها تكميلية أو مركبة. إن هذا التحديد يستدعي مقولة (مستويات الوصف).." [29]، فشخصية الحكيم كما تتميز بصفة جوهرية هي الحكمة إلا انه أو شك أن يفتقد هذه الصفة حين أغوته رئيفة فشخصية الحكيم مؤشر لصراع العقل والقلب. أما شخصية الأرقش فتتميز بالدهاء والذكاء والخبرة والقوة كما في الملفوظ: " الحكيم بشير عقل الحملة على الذئاب السود والأرقش يده الضاربة. " [30].

فالعقل يتطلب وجود قوة لاقتناص الذئب الأسود كما للجانب السياسي يتطلب الجانب العسري لتحقيق الحرية ولعل توزيع شخصية الحكيم في الرواية متواتر وعامل مرسل لجميع الصيادين للقضاء على الذئب الأسود.

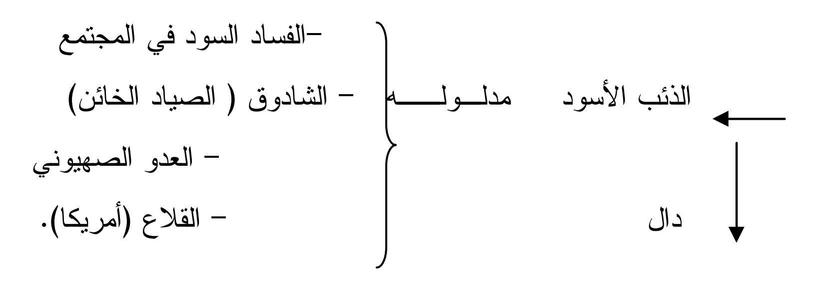
ولعل من مستويات الشخصية أنها متكررة في النص الروائي وعامل محرك ومرسل كما تميز بجملة من السيمات القوة والدهاء والحكمة.

ج- دال الشخصية: (Le signifiant du personnage):

قد بنظر للشخصية كاسم يبحث عن معنى أو دالا يبحث عن مدلوله فإن من الشخصيات ما يبقى غامضا إلى أن نكتشف معاينة وإذا اعتبرنا (الذئب الأسود) كدال يبحث عن مدلوله في النص الروائي فإن هذه التسمية تعد شخصية غامضة تمتزج بين الحقيقة والخيال " الذئب الأسود خرافة حقيقية " [31]. " إلا أن الذئب الأسود لم يظهر حتى الآن مع أنه موجود وقد وصل به الأمر أنه راح يتجول في شوارع المدن وفي شوارع

العواصم ذاتها دون أن يتمكن أيما صياد من رؤيته، ناهيك بالإطلاق عليه (...) وقد يستمر هذا زمنا عمرا بكامله. والأرقش يقول: " ...وليس المهم أن يقتل هذا الذئب في حياتنا بأيدينا. هذا قصر نظر في أبجدية الكفاح...بعدنا سيأتي أولادنا، أحفادنا، ذرارينا، ومطاردة الذئب الأسود ستستمر جيلا بعد جيل، بعد جيل..."[32].

إن باعتبار الذئب الأسود دالا فإنه يحمل جملة من المدلولات كما في الخطاطة التالية:



إن الرواية تدور حول مطاردة الذئب الأسود الذي يخرج من القلاع وعليه فإنه يمكن النظر إلى مدلول بعد جوهر الرواية ونواتها الأساس هو العدو الصهيوني الذي بقيت الأرض الفلسطينية جيلا بعد جيل تسعى لاسترداد الحرية واقتناصه إلا أنه يحتمي بالقلاع وهو مؤشر إلى أمريكا وتبقى المطاردة المستمرة للذئب الأسود هي المقاومة الفلسطينية كما في الملفوظ "المسماة فلسطينية لم تستطع الامبريالية أو الصهيونية العالمية أن تميتها طوال خمسة وخمسين عاما تقريبا " [33]. " بأن الأفعى لا تعض ذنبها ! أمريكا التي يأملون نفعها لن تنفعهم بشيء ...إنها الأفعى وذنبها إسرائيل ، والشعب العربي كله يعرف هذه الحقيقة..." [34].

وبذلك حملت الرواية فكر الكاتب حول مقاومة الشعب الفلسطيني للعدو الإسرائيلي كما عبرت الشخصيات الروائية في حوارها عن عنفوانية العدو الذئب الأسود، الذي سلب الحرية واغتصب الأرض والخبز.

ومما سبق حاولنا في هذه الدراسة أن نسلط الضوء على الشخصية الحكائية في الرواية وكيفية استخلاصها من النص باستناد على مفاهيم فيليب هامون التي استخلصها من أبحاثه في تقسيم الشخصيات وتصنيفها .

المصادر والمراجع:

1- مرشد احمد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، دار فارس للنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان. ط1 . 2005 . ص 33.

2- Voir : yves reuter, introduction à l’analyse du roman, Editions noathan/her.paris.2000.p :51

3- مرشد احمد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، ص 33.

4- المرجع نفسه، ص 33.

5- إبراهيم عباس . الرواية المغاربية.تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي. دار الرائد للكتاب.الجزائر.ط2005/1.ص.345-346.

6- عبد الملك مرتاض. في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد. سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. العدد. 240. 1998 .ص.352.

7- إبراهيم عباس. الرواية المغاربية.تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي .ص 351- 352.

8- عبد الوهاب الرقيق. في السرد- دراسات تطبيقية- دار محمد علي الحامي، صفاقس. تونس.ط1.1998.ص.126.

9- المرجع نفسه.ص.133.

10- مرشد احمد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، ص.35.

11- فيليب هامون. سيمولوجية الشخصيات الروائية. ترجمة سعيد بن كراد. دار الكلام. الرباط. المغرب.1990.ص.08.

12- Voir : philipp Hamon, pour un statuit sémiologique de personnage in poétique de récite édition du seuil, paris.1997.p :125.

13- فيليب هامون. سيمولوجية الشخصيات الروائية ص.24 .

14- إبراهيم عباس. الرواية المغاربية.تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي. ص 352- 353.

15- المرجع نفسه.ص.353.

16- فيليب هامون. سيمولوجية الشخصيات الروائية ص.24.

17- ينظر رشيد بن مالك. السيميائيات السردية. دار مجدلاوي. عمان. الأردن. ط1. 2006.ص.130.131.

18- حنا مينة. الذئب الأسود. دار الآداب. بيروت- لبنان.ط1. 2005. ص.260.

19- الرواية.ص 150.

20- الصادق قسومة. طرائق تحليل القصة. دار الجنوب للنشر. تونس.1994.ض.103.

21- الرواية.ص161.

22- الرواية.ص133.

23- فيليب هامون. سيمولوجية الشخصيات الروائية ص.24.

24- إبراهيم عباس. الرواية المغاربية.تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي.ص 354.

25- شريبط أحمد شريبط. سيميائية الشخصية الروائية تطبيق أراء فيليب هامون على شخصيات رواية غدا يوم جديد للأديب عبد الحميد بن هدوقة. السيميائية والنص الأدبي، أعمال ملتقى. معهد اللغة العربية وآدابها. جامعة عنابة. باجي مختار. الجزائر. 1995 .ص. 204.

26- الرواية .ص 12.

27- الرواية .ص 94

28- الرواية .ص 95.

29- فيليب هامون. سيميولوجية الشخصيات الروائية. ص 40.

30- الرواية.ص 138.

31- الرواية. ص 33.

32- الرواية.ص 211.

33- الرواية.ص 24.

34- الرواية. ص 19.